دلالات المرونة البولندية فى مواجهة اسرائيل

(الدبلوماسى، العدد 264 – 265، مارس/ أبريل 2018)

د. نـورهان الشيـخ

شـهدت العلاقـات البولنديـة الإسـرائيلية تـوتر حـاد منـذ موافقـة مجلـس النـواب البولنـدي، أواخـر شـهر ينـاير علـى التعـديلات التـى أدخلـت علـى قـانون "معهـد الـذاكرة الوطنيـة"، والتـى عُرفـت إعلاميـاً بـ"قانون المحرقـة"، وهـى الأزمـة التـى احتـدمت مـع مصـادقة مجلـس الشـيوخ عليـه مطلـع فبرايـر. ويقضـي القـانون بسـجن كـل مـن يحمـل بولنـدا مسـؤولية جـرائم ضـد الإنسـانية ارتكبتهـا ألمانيـا النازيـة ضـد اليهـود وغيـرهم، بالغرامـة أو السـجن لمـدة ثلاثـة سـنوات. وأكـد القـانون علـى منـع اسـتعمال أي عبـارة تـربط بولنـدا بـالجرائم النازيـة، معتبـرين أنـه يجـب علـى كـل مـن يكتـب أو يصـرح عـن هـذه الفتـرة التأكيـد علـى أن هـذه الأمـاكن بنيـت وأديـرت مـن قبـل النـازيين بعـد احـتلالهم بولنـدا عـام 1939. ومـن المعـروف إنـه قبـل نشـوب الحـرب العالميـة الثانيـة كانـت بولنـدا مـوطن أكبـر طائفـة يهوديـة فـي أوروبـا إذ بلـغ عـدد اليهـود فيهـا 3.2 مليـون نسـمة. وتـرفض بولنـدا منـذ فتـرة طويلـة اسـتخدام عبـارات مثـل "معسـكرات المـوت البولنديـة"، التـي تشـير إلـى أن الدولـة البولنديـة تتحمـل بطريقـة مـا المسـؤولية عـن المعسـكرات التـي بنيـت حينهـا مثـل "أوشـفيتز"، وأن تلـك المعسـكرات بنتهـا وأدارتهـا ألمانيـا النازيـة بعـد غـزو بولنـدا. ومـن ثـم فـإن السـؤال الـذى طـرح علـى الفـور هـو لمـاذا الآن، بعـد مـرور مـا يزيـد عـن سـبعة عقـود علـى الحـرب العالمية الثانية؟

لقـد بـررت وارسـو الخطـوة بسـعى حـزب القـانون والعدالـة الحـاكم فـي بولنـدا، منـذ وصـوله إلـى السـلطة بفـوز كاسـح عـام 2015، إلـى إذكـاء المشـاعر الوطنيـة ورفـع الـوعي حـول الجـرائم ضـد الإنسـانية التـي ارتكبـت فـي بولنـدا ضـد الكثيـر مـن الفئـات، ومـن بيـنهم البولنـديين أنفسـهم الـذين حـاولوا مقاومـة النازيـة، والتركيـز علـى الأعـداد الكبيـرة مـن الضـحايا البولنـديين الـذي قتلـوا علـى يـد الجـيش النـازي وأعوانـه، والحـرص علـى التـرويج لتـاريخ بولنـدا بوصـفها ضـحية، لـيس فقـط للنـازيين بـل وللسـوفييت أيضـاً. وأن الكثيـرين مـن البولنـديين قـد كُرّمـوا فـي إسـرائيل لإنقـاذهم اليهـود خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة أكثـر مـن

مـواطني أي دولـة أخـرى فـي أوروبـا. وهـى الحملـة التـى جـاءت إثـر اتهامـات المعارضـة للحـزب الحـاكم بـأن الخطـوات التـي يتخـذها تسـاعد علـى تصـاعد اليمـين المتطـرف فـي البلاد وتشجع على الكراهية والعنصرية، ومعاداة اللاجئين والاتحاد الأوروبي.

ويبـدو أن هـذا التبريـر لـم يكـن مقبـولاً بالقـدر الكـافى مـن جانـب اسـرائيل. فقـد فجـر القـانون مواجهـة دبلوماسـية بـين اسـرائيل وبولنـدا حيـث أعربـت إسـرائيل عـن غضـبها مـن القـانون الـذي وصـفه رئـيس الـوزراء بنيـامين نتنيـاهو بأنـه "محاولـة لإعـادة كتابـة التـاريخ ونكـران المحرقـة والعبـث بتـاريخ الشـعب اليهـودي". كمـا شـجب القـانون نـواب الكنيسـت الاسـرائيلى مـن مختلـف القـوى السياسـية، وقـدمت وزارة الخارجيـة الإسـرائيلية احتجاجـا رسـميا للسـفير البولنـدي فـي تـل أبيـب، ياتسـك حـودوروفيتش، واحتجـت السـفارة الإسـرائيلية فـي وارسـو وأصـدرت بيانـا فـى 2 فبرايـر عبـرت فيـه عـن اسـتيائها مـن "موجـة التصـريحات المعادية للسامية التي وصلت إلى السفارة عبر كل قنوات الاتصال".

إلا إنـه كـان واضـحاً أن بنيـامين نتنيـاهو لا يميـل للتصـعيد حيـث رفـض اسـتدعاء السـفيرة الإسـرائيلية فـي وارسـو، آنـا أزارى، أو خفـض مسـتوى العلاقـات الدبلوماسـية بـين البلـدين، وذلـك فـى إطـار الحـرص علـى العلاقـة بـين البلـدين والتخطـيط لاستضـافة قمـة رباعيـة، "فيسـجراد"، تضـم كـل مـن بولنـدا والجمهوريـة التشـيكية وسـلوفاكيا والمجـر. ومـن ثـم اتجهـت اسـرائيل لممارسـة ضـغوط شـديدة فـي الوقـت الـذي واصـلت فيـه الخارجيـة الإسـرائيلية إجـراء اتصـالات مـع البولنـديين مـن وراء الكـواليس فـي أعقـاب التصـديق علـى القانون.

صـاحب الضـغوطات الإسـرائيلية مجموعـة مـن الضـغوط الداخليـة والخارجيـة غيـر الإسـرائيلية التـى تعرضـت لهـا بولنـدا، فقـد وقـع حـوالى 100 مـن الفنـانين البولنـديين والسياسـيين والصـحفيين رسـالة مفتوحـة تـدعو إلـى إلغـاء القـانون، جـاء فيهـا: "إننـا ذهبنـا بعيـدا لإظهـار بولنـدا علـى أنهـا الدولـة الوحيـدة التـي لا تشـوب تاريخهـا شـائبة فـي أوروبـا". مـن ناحيـة أخـرى، أثـار القـانون حفيظـة أوكرانيـا أيضـاً التـي تملـك حـدودًا مـع بولنـدا حيـث تضـمن الـنص علـى فـرض العقوبـة نفسـها علـى الدعايـة لإيـديولوجيا أنصـار "سـتيبان بانـديرا"، المتطـرف القـومي الأوكرانـي، ونكـران مذبحـة "فـولين" التـي ارتكبهـا القوميـون الأوكرانيـون خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة. ودعـت أوكرانيـا السـفير البولنـدي لـديها، لتوضيح الأمر، واعتبرت هذه الخطوة فى حينها تصعيدًا في الأزمة بين البلدين.

كذلك أعرب وزير الخارجية الأمريكي ريكس تيلرسون، عن خيبة أمل واشنطن من مصادقة الرئيس البولندي على القانون وأعتبر أن سن هذا القانون سيكون له أثر ضار على حرية التعبير والبحث الأكاديمي. وصرح ماريك ماجيروسكي، نائب وزير الخارجية الأمريكى، يوم 28 فبراير، بأن "وارسو لن تستطيع تبييض صفحات تاريخها، وأن بولندا ارتكبت أعمالا غير مشروعة خلال الحرب العالمية الثانية" وأضاف "أن القانون هو وسيلة للدفاع عن الدولة من تهمة التواطؤ في جريمة المحرقة." وأعرب عن قلق الولايات المتحدة إزاء إصدار القانون، وأنه سيقوم خلال الأسبوع الأول من مارس بلقاء مسؤولي الإدارة والمشرعين والجماعات اليهودية في محاولة لتهدئة مخاوفهم.

وفى المقابل أكد الرئيس البولندي أندريه دودا، الذى أقر القانون، في خطاب تلفزيوني، يوم 6 فبراير، إن هذا القانون يحمي سمعة بولندا في العالم، ويحفظ الكرامة والحقيقة التاريخية، وحتى لا يتم تشويه صورة بولندا كأمة. ولفت إلى أن "القانون يأخذ في الاعتبار الحساسية بالنسبة لهؤلاء الذين تمثل لهم الحقيقة التاريخية وذكرى المحرقة أهمية كبيرة". "لكن إسرائيل تعتبر أنه توجد مسؤولية مشتركة للحفاظ على ذكرى المحرقة، وتدعو لإجراء تعديلات عليه".

وأعرب السياسيون البولنديون عن استيائهم إزاء الرد الإسرائيلي، وقال ستانيسواف كارتشفسكي رئيس مجلس الشيوخ: "نحن مستاؤون جدا ومتفاجئون، بأن ينظر إلى نضالنا من أجل الحقيقة، وكرامة البولنديين بشكل خاطئ". وقال نائب وزير العدل مارتشين فارتشول إن "بولندا دولة ديمقراطية تحترم حرية النقاش العام والبحث العلمي والحق في الانتقاد." وقال رئيس الوزراء ماتيوش مورافيتسكي إن بولندا ملتزمة بمكافحة الأكاذيب حول المحرقة، وأن المعسكرات التي قتل فيها ملايين اليهود لم تكن بولندية، وهذه الحقيقة تحتاج الى الحماية. وفى بيان للمتحدثة باسم رئيس الوزراء البولندي، جوانا كوبشينسكا، أشارت إلى أن "رئيس الوزراء مورافيسكي لم يكن هدفه إطلاقاً إنكار المحرقة ولا تحميل الضحايا اليهود أدنى مسؤولية الإبادة الألمانية."مشيرة إلى أنه "على العكس، عارض مورافيسكي بشدة مرات عديدة إنكار الإبادة الجماعية، التي لا يمكن تصورها، وهي محرقة اليهود الأوروبيين، كما أنه عارض أي نوع من معاداة السامية"، لافتة إلى أن تصريحاته "يجب أن تفسر على أنها دعوة إلى نقاش صريح حول الجرائم المرتكبة ضد اليهود، يجرى وفقاً للوقائع، وبصرف النظر عن جنسية من ارتكبها في حالة معينة، أو شارك فيها أو جعلها ممكنة."

فى ضوء هذا الموقف للرئيس البولندى ورئيس الوزراء والبرلمان كان من الصعب التراجع التام عن القانون أو إلغاءه. ورغم أن صحيفة "هآرتس" العبرية أفادت فى 25 فبراير، بعد حوالى أسبوعين من تصديق مجلس الشيوخ على القانون، بأن بولندا أبلغت إسرائيل بقرارها تجميد إنفاذ القانون، تلبية للطلب إسرائيلي، وأن وارسو وافقت على إرسال وفد إلى تل أبيب من أجل التباحث وتبديد التوتر الذي شاب علاقات البلدين منذ سن القانون في البرلمان البولندي، والتوافق على صياغة جديدة للقانون!. فإن القانون قد دخل حيز التنفيذ فى الأول من مارس، تزامن هذا مع زيارة وفد دبلوماسى بولندى برئاسة نائب رئيس الوزراء لإسرائيل لإجراء محادثات وصفتها تل أبيب بأنها "عميقة وشفافة" حول القانون.

ويظل التأثير الإسرائيلى هو العامل الفاعل فى مرونة الموقف البولندى، الأمر الذى يثير التساؤل حول كيف تمكنت إسرائيل من تحقيق هذا الانجاز الدبلوماسي ودلالات ذلك فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية؟

إن الدلالة الرئيسية التى تحملها مرونة وارسو عن إزاء اسرائيل هى قدرة الأخيرة على اختراق الساحات العالمية، والتحرك بفاعلية وتأثير كبير يساعدها فى ذلك الدعم الأمريكى المطلق لها، وإمتلاكها أدوات تأثير فعال وقدرة على الضغط الإعلامي الكبير، وتوظيف ما تمتلكه من تكنولوجيا متقدمة، وشخصيات يهودية مؤثرة عالمياً. هذا إلى جانب التواصل المباشر مع متخذي القرار في الدول المستهدفة، وارسال بعثات لمتابعة القضايا التي تمس إسرائيل قبل اتخاذ القرارات ونضوجها. والاحتفاظ بقنوات مفتوحة وعلاقات قوية مع الدول المؤثرة في العالم، بما فيها تلك التى تتناقض سياستها معها ومع حليفها الاستراتيجى، الولايات المتحدة، والانفتاح على قوى التأثير العائدة، روسيا، والصاعدة، الصين والهند. وأمام هذا الحراك الأخطبوطى لإسرائيل تظهر الحاجة إلى ضرورة اتباع اقترابات غير تقليدية بشأن القضية الفلسطينية وتطوير آليات إعلامية ودبلوماسية فعالة قادرة على مواجهة التحديات وتجاوز الأزمة الحادة التى تمر بها منذ قرار ترامب بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس وما لذلك من تداعيات كارثية على الحقوق الفلسطينية، والأمن والاستقرار الإقليمى.